مراجعة كتاب

نهر الحيوان نهر اللغة(*)

حسين بافقيه

«والأعراب تقول في الأَصلَةِ قولاً عجيباً: تزعم أن الحيّة التي يقال لها الأَصلَة لا تمرُّ بشَيْءٍ إلا احترق... مع تهاويل كثيرة، وأحاديث شنيعة.»

(الجاحظ: **الحيوان**، ج ٤، ص ١٥٥)

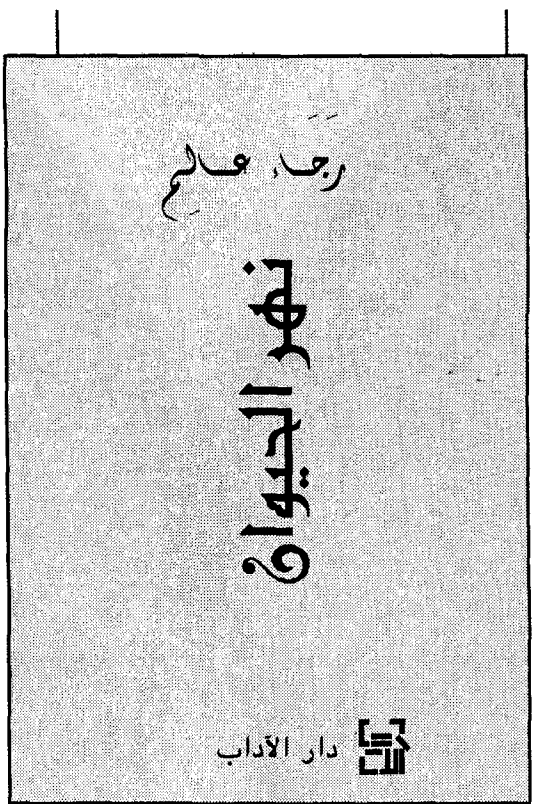

الكتابة، كما لدى رجاء عالم، تتّسم بانتمائها إلى فعل التأسيس لبنية لغوية ذات مرتكزات كونيّة، تمارس فيها الكلمةُ دورَ الحفر في أعماق اللّغة وكأنّها إزميل تتشكّل عن طريقه معالمُ البنية الكونيّة التي تريد رجاء عالم تأسيسها. ولذلك فإنّه يمكنني عدُّ آلية الكتابة لديها عمليةَ إرجاع لطينة الوجود الرخوة وصهرها بالعناصر الأولى التي تنجدل فيها اللّغة داخل تلك البنية الكونية الرخوة.

وتفريعاً لما سبق، فإنّ تشكيل البنية الكونيّة من خلال نصوصها يتأسّس من خلال صلصال اللغة، حيث يتماهى الفعلُ اللغويُّ داخل التشكّل الكوني، وتتعالى اللّغة – حينَها – عن أن تكون بنيةً شكلانيّةً أو بدعةً أدبيّة، لتنخرط في الوعي البدائي الذي تمثّل فيه العلامةُ اللغويةُ تأسيساً لميلاد جديد. ومن هذا المنطلق فإنّ النصّ الإبداعي لديها ينزع إلى تأسيس ميثولوجياهُ الكونيّة حيث تلك الخاصيّةُ النشوئيةُ التي يتولّد من رَحِمِها كونٌ لغويٌ ممعن في رؤياه التكوينية.

هل يمكنني القول، بناءً على ما سبق، بأنّ نصوص رجاء عالم تطمح إلى صياغة جديدة للحداثة، صياغة مغايرة، تفجؤنا فيها اللغةُ بارتهانها إلى كينونة تبارح الاندهاشَ وفعلَ اللّذة المتأتّي من أقبية المجاز والاستعارة والتشبيه... إلخ، لكي تجبهنا بانتمائها إلى اللغة المنجدلة بالفلسفة الكونية التي تسعى إليها؟ إنها فلسفة العودة إلى النماذج العليا حيث هشاشة الكون الذي لم تجف بعد طينتهُ. ولذلك كان لا بدّ أن تتّسم هذه النصوص بكونها معضلةً ومضنيةً! فاللغةُ، ثمّة، تقشَع، بشراسة، أقنعةَ الزيفِ، إلى حيث اللغة المغتذية بطبقات موغلة في تاريخيّتها البدائية، والتي يكون من غاية قراءتها الانتقالُ إلى مرحلة تأويلها وربطها بعوالمها الأولى وصلصالها الخام!

وعلى مستوى آخر، جاءت نصوص «عالم» تتحدى براءةَ القارئ. ذلك أنّ فعل القراءة – ها هنا – سوف ينفصل، حتماً، عن أدوات القراءة المعتادة. فسوف تبارح القراءة

(*) رجاء عالم: **نهر الحيوان** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٤)

طبقيّتها، لأنّ النصّ الماثل قد تجاوز تلك الطبقية وانسلخ عن زمنه المعتاد، ليتداخل ويتناسخ مع أزمنة لغوية وكونية مختلفة... الأمر الذي يجعل آليةَ القراءة خاضعةً لهذا التحدّي الذي تبديه نصوصُها وهي تنفصل عن النصّ الجليّ لتؤسّس للنصّ الخفيّ. وإذا جاز لي أن أستعير لغةَ ابن قُتيبة، فإنّ النصّ لدى رجاء عالم نصٌّ مُشْكِل، يقود من حينه إلى قراءة تأويل؛ إذ إنّ «كلّ باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يجلُّ، ومنه ما يدِقُّ، ليرتقي المتعلّمُ فيه رتبة بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه، ويدرك أقصاه؛ ولتكون للعالم فضيلةُ النظر، وحُسْنُ الاستخراج... ولو كان كل فنٍّ من العلوم شيئاً واحداً، لم يكن عالم ولا متعلّم ولا خفيّ ولا جليّ... وعلى هذا المثال... أشعارُ الشعراء، وكلامُ الخطباء: ليس منه شيء إلا وقد يأتي فيه المعنى اللطيفُ الذي يتحيّر فيه العالمُ المتقدِّم، ويقرُّ بالقصور عنه النقّابُ المبرِّز».[1].

- ٢ -

يؤسّس نصُّ «الأَصَلَةِ» لزمن مستمرّ، يتجاوز فيه الكونُ اللغويُّ الزمانَ الطبيعيَّ (الاجتماعيَّ)؛ ولذلك جاء التأكيدُ على مسألة التماهي بين عناصر الوجود الكونيّ، عبر آلية التشكيل اللغويّ الذي استطاع أن يؤكّد هذا التزمينَ الميثولوجيَّ. فثمّة عناصرُ أوليّةٌ في النصّ تدعم هذه الرؤية التي أرى إليها، وهي عناصر كونيّة أوليّة ساهمتْ في تأسيس الزمان الممتدّ اللامتناهي الذي يرتدّ في تاريخيّته إلى الطينة الأولى التي ما تني تشكّلاً واستمراريّةً من عالم إلى عالم ومن تجسّد إلى تجسّد. النصّ عبر هذه الرؤية الكونية، وعبر هذا التشكّل اللغويّ الكونيّ، جاء تجسيداً للزمان المستمرّ: زمنِ الحياة المتوالية والخالي من الموت! وتجيء هذه الاستمرارية التي ألْمَحُها في النصّ من خلال «**نهر الحيوان**»: النهر في اندفاعه وسيلانه وتدفّقه المستمرّ، والحيوان هذا «الفَعَلاَن» الذي ما إن يبدأ حتى يستمرّ تدفّقاً وحياةً أبديّة تتجاوز قشورَ المادّة والتحلّل.

إن النص يؤكد على الأبدية هذه عبر مهاد زمنيّ ينفصل فيه عن التقسيم الطبيعيّ الإنسانيّ، ويتشكّل في تمثّل الكونيّ / اللغويّ (الحيوان) متجاوزاً تلك الحدودَ النوعيّة التي تفصل كائناً عن كائن؛ فليس ثمّة سوى الحيوان، وهو ينجدل تركيبياً في كينونة بدئيّة أوّليّة (نهر الحيوان).. جاء في كتاب **حياة الحيوان الكبرى** للدميري أنّ: «الحيوان نهرٌ في السماء الرابعة يدخله ملكٌ كلَّ يوم فينغمس فيه ثم يخرج فينتفض انتفاضةً يخرج منه سبعون ألف قطرة يخلق اللّهُ تعالى من كل قطرة ملكاً.... وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي ليس فيها إلا حياة دائمة مستمرّة خالدة لا موت فيها...»[2]. إنّ تقاطر النهر وتوالده يجيئان بوصفهما آليةً لفعل الاستمرار والأبديّة، ولذلك فإنّ «فاطمة المكّيّة» ما هي إلا إمكانيّة من إمكانات نهر الحيوان الذي ماينى توالداً وتناسلاً: «وحين تسألونني عن خطّ حياتي القديم، أصارحكم بأنّني قد تنقّلتُ بين الأحياء والرموز متجنّباً الألفاظَ وأجسادها...» (ص ٦). إنّ صيغة «فَعَلان» الماثلة في «الحَيَوَان» تتعالى على مسألة النوع والجنس، مادامَ ذلك يقود إلى مرجعيّة واحدة «من طينة تخمّرتْ في بطن من أرضٍ جزيرةٍ منسيّة» (ص ٦) تمثّلت في حيّ بن يقظان وفاطمة المكّيّة والزهراء ثم الأَصَلَة. ذلك أنّ الغاية المثلى لهذا التشكّل ترى إلى الوجود الكلّي للكون، ذلك الوجود الذي سبق لحيّ بن يقظان أنْ عاينه في المتغايرات فكان أن قاده نظرُه إلى «..أنّ ذلك الاختلاف إنما هو بسبب ما يصل إليها من قوّة الروح الحيوانيّ، الذي انتهى إليه نظره أوّلاً، وأنّ ذلك الروح واحد في ذاته، وهو حقيقة الذات، وسائر الأعضاء كلّها كالآلات، فكانت تتّحد عنده ذاته بهذا الطريق»[3]. وهذا ما كانته «فاطمة المكّيّة» في تمثّلها الأوّل: حيّ بن يقظان «... حتى لم أَدَعْ بين الذوات حدّاً... وملكتُ قدرةَ التناهي والتنقّل في الأزمان والأجسام...» (ص ٧).

- ٣ -

على الرغم من كون الزمن الذي يريد النصّ أن يؤكّده زمناً واحداً هو: «زمن الحياة الخالية من الموت»، فإنّ النصّ يُخضع هذا الزمن السرمديّ الميثولوجي لرؤيته الكونيّة التي تعي ارتكازها إلى أصل واحد هو «طينة متخمّرة». ولذلك جاء كسرُ هذا

(١) **تأويل مشكل القرآن**، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) **حياة الحيوان الكبرى**، جـ١، ص ٢٥٩.

(٣) **حي بن يقظان**، ابن طفيل، ص ١٤٩.

السرمد بالتحوّلات الماثلة في النصّ، وهي التحوّلات التي لا تلغي الفلسفةَ البدائيّة التي يتبنّاها النصّ عبر بنية التحوّلات: (طينة مختمرة - حيّ بن يقظان - فاطمة المكيّة - الزهراء - الأَصَلَة الزهراء - الأَصَلَة الوليد... إلخ). فالمرجعيّة في ذلك كلّه تؤول إلى «نهر الحيوان»، ذلك النهر الذي يتولّد من كل قطرة منه سبعون ألفاً إلى ما لا نهاية![٤] إن هذه التحوّلات تدعم استمرارية النهر وتدفّقه، غير أنها تحاول أن تعقلنه من خلال تمثّلها في حيوات متجدّدة.

يضجّ نصّ رجاء عالم ببنية التحوّلات وهي تخرج من المجرّد (الحيوان) وتدخل في الإطار المجسّد (الحيوات المختلفة التي يحفل بها النصّ)، فكأنّ هذه التحوّلات انبثاقٌ طبيعي لذلك النهر: (حي بن يقظان - فاطمة المكّيّة - الحمامة - الزهراء... إلخ). وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ عباراتٍ من نَوْع: «الطين الحارّ والبارد - الرطب باليابس - انشقّت عني تلك الأغطية - بينما دكّة سراويلها تدور على حوضها بأقلامها، قلم حرير يتبعه قلم قطن - فراغ طويل كثعبان محنّط - هيئتي تبدّلت بين الأنثى والذكر - فسرحت بين حمامات مكّة من قوس قزح - تمثّلت قروناً من الصلوات مع سربي الرمادي - بدأت الكتابة من عمود عابدة الفقري تهبط، تتعرّج لافّةً خاصرتها - جاءت الولادة كخروج كائن من جلده - ترقّش جلدي بكلّ تقلّصاتها وزلاقتها - في تلك المدّة كانت مكة قد بدلت جلدها للمرّة الثالثة» ذات قاسم مشترك يتحدّد في تلك الثنائية والانسلاخ والتحوّل من حال إلى حال. إنّ تلكم الصفات: (الانسلاخ، التشقّق، التلوّن، تبديل الجلد..) تتحدّد في مجموعها بكونها صفات «الحيّة»، ذلك الكائن البدائيّ الموغل في القدم والمساوق لنشأة الخليقة[٥]. غير أنّ وضع الحيّة في بنية النصّ يأخذ شكلاً مغايراً في ثنائيّتها الماثلة في أمرين: كونها الأَصْل = الأَصَلة، وكونها ذات طبيعة ثنائية غير واضحة المعالم؛ فهي «حيّة قصيرة كالرئة حمراء ليست بشديدة الحمرة لها رجل واحدة... تنفخ فلا تصيب شيئاً بنفختها إلا أهلكته؛ وقيل هي مِثْلُ الرّحى مستديرة حمراء لا تمسّ شجرة ولا عوداً إلا سمّته، ليستْ بالشديدة الحمرة لها قائمةٌ تخبط بها في الأرض وتطحن طَحْنَ الرحى؛ وقيل: الأَصَلَة حيّة صغيرة تكون في الرمال لونُها كلون الرئة ولها رجلٌ واحدة تقف عليها تثب إلى الإنسان ولا تصيب شيئاً إلا هلك...»[٦].

غير أن هذه الثنائيّة غير واضحة المعالم، لا تُعدّ بالغريبة على سياق النهر الكوني: نهر الحيوان. فهذه التعدّدية في التوصيف تؤول - كما أرى - إلى آلية التوالد والانتقال من التجريد إلى التجسيد وعبر حيوات مختلفة. بل إنّ الأَصَلَة تجمع إلى ذلك كونَها تستند إلى اشتقاق لغويّ فريد، باعتبارها أصلاً وأيلولة في الأساس، وباعتبارها مجانسةً للإنسان. فالأصل «أسفل كل شيء... والأصيلة بمعنى الهلاك»[٧]. غير أنها على مستوى آخر تشترك مع الإنسان - بوصفه نوعاً - بخاصّيّة مشتركة، إذ إنّ لها وجهاً «... كوجه الإنسان ويقال إنه يصير كذلك إذا مرّت عليه ألوفٌ من السنين...»[٨].

- ٤ -

ولكن، لماذا الأَصَلة؟ ما الذي مهّد لحضورها وسيطرتها الكونيّة والدلاليّة في النصّ؟

إن نصّ «الأَصَلَة» يرتكز على ما يمكن عدُّهُ بنيةً تماثُليّة، ترى إلى إعادة تكوين نصّ ابن طفيل **حي ابن يقظان**، ذلك النصّ الكينونيّ في محاولته الوصولَ إلى الذات الفائقة، عبر آلية المعرفة المبنيّة على الملاحظة والتدرّج المنطقيّ القياسيّ. كان يُهَيّأُ لفاطمة المكّيّة أنّ الزمانَ السرمديّ، زمانَ نهر الحيوان، قد يتوقّف في زمن الطفولة، بعد انفصالٍ قارَبَ الألفَ عامٍ عن توحّدها في حي بن يقظان (ص ٧)؛ إلاّ أنّ الزمان المستمرّ، زمن التحوّلات المتجسّدة في حيوات مختلفة، قد غدا - كما يبدو في النصّ - أمراً حتمياً ما دام نهر الحيوان لَمّا يزل متدفّقاً. غير أنّ البنية الكونيّة الكليّة في صلتها بالكواكب والنجوم، وهي ذات صلة بالذات المتوحّدة، ما لبثت أن طرأتْ في النصّ حتى تقوده إلى تحوّلات جديدة: «بدأت مشاكلي في المجتمع

(٤) **حياة الحيوان الكبرى**، جـ١، ص ٢٥٩.

(٥) عن ذلك انظر: **قصص الأنبياء** للثعالبي، ص ٢٦ وما بعدها.

(٦) **لسان العرب**.

(٧) **لسان العرب**، ويشير الدميري إلى أن سبب تسميتها بالأصلة قد يعود إلى استهلاكها واستنصالها، **حياة الحيوان**، جـ١، ص ٢٥.

(٨) **حياة الحيوان الكبرى**، جـ١، ص ٢٥٠.

المكّيّ عندما فاجأ المخاضُ جارَتَنا عائشة السبكية وكانت قد ترمّلت حديثاً وهي مبذورة في شهر حملها السابع. تلك الليلة نزل القمرُ حتى ملأ حنفيّةَ الماء في الخارجة أمام ديوان دارنا. وحتى تلك الليلة كنتُ أخفي جيّداً صِلاتي القديمة بالأندلس وابن طفيل وأعالج نسيانها..» (ص ٧، ٨). عن طريق هذا الحافز سوف يستيقظ الحلمُ القديم الذي حاولتْ فاطمةُ المكّيّة نسيانَه: حلمُ التوحّد الكونيّ، الذي عاشته في دور حيّ بن يقظان قبل ما يقرب من الألف سنة! هنا يأتي دور الأَصلَة، الذي كانت اللّغةُ – كما في النصّ – على وعي تاريخي/ميثولوجي به. فالنصّ يشير إلى نزول القمر (ص ٨)، وثمّة ارتباطٌ كونيّ وثيقٌ بين الحيّة والقمر يستدعي أحدهما الآخر في معظم السياقات، إذ إن «المشهور عن الحيّة أنّها حيوان قمري»[٩].. كما أنّ نصّ «الأَصلَة» يحفل – كما أشرت سابقاً – بصفات الحيّة (التلوّن – الانسلاخ – التبدّل – التعرّج – الترقيش...). وهذا ما لعلّه أن يشير إلى وعي النصّ الباطن بظهور الحيّة = الأَصلَة وهيمنتها.

إن القمر وهو يشير إلى المرض والموت، لكونه بارداً متلقّياً الحرارةَ بالتبعية لا بالأَصالة[١٠]، ينقضُ البنيةَ التماثليةَ التي كان مُهيّأً لفاطمة المكّيّة أن تقوم بها. فنزولُ القمر أدّى إلى موت عائشة السبكية، وكأنه سلبها الحرارةَ أو النارَ التي تبثّ الحياة، تلك النارَ التي كان لحيّ بن يقظان أن يكتشفها حينما شقّ صدرَ أمّه الغَزَالَة[١١]. إلا أنّ ما تحقّق لحي بن يقظان في ذلك الدور من التوالد، لم يكن ليتهيّأ لفاطمة المكّيّة ممارسته؛ فحيّ بن يقظان (الإنسان المتوحّش) اتّحد اتحاداً مباشراً بلذّة المعرفة المنفردة، وهذا ما لم يتحقّق في حالة فاطمة (الإنسان الاجتماعي)، الأمر الذي أدّى إلى انعزال جديد تعيشه فاطمة كان لها أن تمارس – عن طريقه – معاودةَ الاتّصال الكوني: «... و... قبل أن تمسّ نافذتي بطانةَ الرَّحم المجعّدة هبطت حولي شبكةٌ مولولَة... مغزولة بالتشنّجات. أمسكتني شبكتُهُم. قيّدوني. ثم مضت أقمار ودورات شمسية وأعوامها وأنا محبوسة في حجرة يسمّونها مخلوان...» (ص١٠).

– ٥ –

ثمّة مماثلة بين فاطمة المكّيّة وحيّ بن يقظان تتحدّد في عمليّة الانقطاع والاختلاء، ومن ثم التدرّج في المعراج الروحيّ الكونيّ، والاتّصال بعناصر الكون، وإعادة صياغته؛ فحيّ بن يقظان في جزيرة منعزلة، وفاطمة المكّيّة حبيسة حجرة. إن آلية النفي التي طالت تينك الذاتين ولّدتْ تلك الكينونَة الجديدة، غير أنّ الدورة الحيوية الجديدة بالنسبة لفاطمة المكّيّة بدأت بدخولها طورَ التحوّل والتبدّل: «وحُجبت لأنني كما قالوا: جُننت. لبستني جنّيّة المرأة النفساء ولم تغادرني. حتى هيئتي تبدّلتْ بين الأنثى والذكر في أبصارهم» (ص ١٠). هذا النصّ يؤكّد واحديّةَ الذات الكونيّة، كما أرى إليها من خلال النصّ؛ فالذات، وإن تغايرت مرحلةً إثرَ مرحلة، إنما هي واحدة، في الوقت الذي يظهر فيه هذا التغاير والتبدّل من خلال رؤية الآخرين للذات: «حتّى هيئتي تبدّلتْ بين الأنثى والذكر في أبصارهم». إنّ هذه الازدواجية بدايةُ الانتقال والاتحاد بالأَصلَة... ذلك أنّ الأصلة كائن أسطوري غريب يحمل في مظهره ثنائيّتَهُ؛ فهو في وقت واحد: حيّة وإنسان «وجه إنسان، رِجْل واحدة»! وفاطمة المكّيّة دخلت في طور الحيّة؛ فهي في البدء كانتْ بين الذكر والأنثى، ثم في طور توحّدها في حمامة قد حملتْ، كذلك، لوناً مزدوجاً، هو الرمادي، وفي أيلولتها في «الزهراء» تأكّدتْ فيها طبيعةُ الحيّة: «وفي الشوط السابع بدأت الكتابة من عمود عابدة الفقريّ تهبط، تتعرّج لاقّة خاصرتها، مندفعة لبرزخ الساقين... وللمحة ضربتني لفحة شوق لرائحة البشر ولأنماط معيشتهم، زلزلة عابدة حنّنتني للعبور بمخاض امرأة، فتقدّمت لركبوها. وجاءت الولادة عسيرة كخروج كائن من جلده، وترقّش جلدي بكل تقلّصاتها وزلاقتها...» (ص١١، ١٢).

في النصّ السابق ضجّة هائلة ببداية تشكّل الحيّة = الأَصلَة: فثمّة علاقة بين الكتابة التي تهبط، تتعرّج لاقّة خاصرتها، وبين الحيّة! فالكتابة بوصفها تحقيقاً ووجوداً معايناً، مرادفة للترقيش الوارد ذكره في النصّ، والترقيش صفة من صفات

(٩) **الغائب: دراسة في مقامة الحريري**، عبد الفتاح كيليطو، ص ٣٠.
(١٠) السابق، ص ١٠.
(١١) **حي بن يقظان**، ص ١٥، ١٣٦.

الحيّة[12]... هذا فضلاً عن تلك الإشارة الصريحة إلى الخروج من الجلد، الذي يُعدُّ من أَبْيَن صفاتِ الحيّة.

- ٦ -

هل يمكنني القول إنّ نص «الأصلة» يماثل في بنيته هذه قصّةَ التكوين؟ إنّ الأَصَلَة تحمل شبهاً كبيراً بتلك الحيّة الأولى في تاريخ الكون. ذلك أنّه حسب ما جاء في كتب التاريخ والأخبار أنّ الحيّة الأولى التي أدخلتْ إبليسَ - عليه لعنةُ الله - بين أنيابها ودخلتْ به إلى الجنّة ليغويَ آدمَ وحوّاءَ قد كان لها قوائمُ أربعُ، فكان أن حلّت عليها اللعنة، فأصبحت تزحف على بطنها: «وقال للحيّة: أنتِ التي دخل الملعونُ في بطنك حتى غرَّ عبدي، ملعونةٌ أنتِ لعنةً حتى تتحوّل قوائمُك في بطنك، ولا يكون لك رزق إلا التراب، أنتِ عدوّة بني آدم وهم أعداؤك....»[13]. والأَصَلَة في النصّ الماثل أمامنا ذاتُ رِجْل واحدة؛ كما أنّ لها وجه إنسان؛ هذا بالإضافة إلى تلك المنافحة بينها وبينه كما تشير كتب اللغة والحيوان. إنّ النصّ يؤكّد قدمَها الموغل عندما يؤلّف ما بينها وبين «شجرة الطوبى»، بحيث تغدو هذه الشجرة المنغرسة في تربة الجنّة[14] مرتعاً لهذه الحيّة.. غير أنّ النصّ ينتصر للأَصَلَة حينما يؤكّد امتدادها وارتباطها بطوبى، وكأنّه بذلك ينحرف بهذه الشجرة عن دلالتها التاريخيّة ذات السمة الإيجابيّة المرتبطة بالإنسان.

إن حضور شجرة طوبى في الثقافة العربيّة نفيٌ للحيّة وتدمير لها[15]، إلا أن النصّ - ها هنا - يجعل من حضورها تأكيداً لهيمنة الحيّة / الأَصَلة، ونفياً للإنسان: «حتى جاءتني في المنام شجرةٌ، قالت: أنا طوبى من شجر الجنّة، والأصلة التي تربّينها هي من بناتي الرضّع، حضنتها لآلاف الأعوام ولم تتمّ حضانتها، ولقد غادرتني مستجيبةً لوحدتك ولم أصدّها، فلا تحرمني رضاعتها... وعندما أفقتُ إذ بوسادتي مبطّنة بأوراق خضر على هيئة ورق الزيتون. فلما أقبلتُ به على الأصلة سال إليها سيل ورواها...»(ص ١٣).

إنّ الأَصَلَة، وقد رضعت من شجرة الخلد[16]، كان لها أن تهيمن وتمارس مناوأتها للإنسان. إنّها، وقد قلبت العلاقات التاريخية والثقافية - كما في النصّ -، بدأت باستئصال كل ما يقع بصرُها عليه، عبر ثنائية مستمرّة: فهي تبثّ الموت أينما حلّت عبر «حدقتها الباردة والحاملة للموت فيها...»(ص ١٣). كما أنها في الوقت ذاته تبثّ نهرَ الحيوان الممتدّ والمتدفّق من خلال تلك النار المنبثّة في الزوايا، وفي جسد الزهراء المتوحّدة فيها: «ودبّت في بيتنا بنزلة القرارة حركة غير عاديّة، فقد انفلت فيه نهرُ الحيوان، يصعد من القبو ويغافل الناس ويعود فيجري في ظلمته... حتى أحاطتني إثارة ذات شرر، واجتمع عليَّ صالح وعابدة لمداواتي من الحمّى...» (ص ١٤). وتحقّق للأَصَلَة في بنية النصّ الماثل ما لم يتحقّق لحيّ بن يقظان الذي لم يستطع تأسيسَ المجتمع الذي يسعى إليه، ومن ثم كان النفيَ - عن المجتمع في جزيرته المنسيّة - مآلُهُ يمارس فيه وحدته واتّحاده... في الوقت الذي كان فيه الامتدادُ والاستمرارية في حيوات جديدة ولا متناهية مصيرَ التلبّس بالأَصَلَة، وكأنّها أرادتْ تحقيق ما لم يستطعه حيّ بن يقظان: «هأنذا أربّي ابنتي على شجرة مرحة، تقف في جزيرة موغلة في القدم من أصفى صلصال حيّ بن يقظان، دائماً هي متنقّلة وفي كل مكان طريّة بين شماريخ الشجرة تلاعب الأصلات الجبارة. حتى إذا جئتها ودخلنا إحدانا في الأخرى، سرت جدّتها في قدمي وحفّزتني على الدخول في دورات جديدة. بين الواحد وواحِدِهِ يمتدّ اللانهائيُّ، بيني وبين أصلتي لا تكفّ تتبرعم الأرواحُ الشاردة، حتى ساحت منا أقوامٌ ومجرّاتٌ وتقلّبات، وامتدّ عمرانٌ لملايين الملايين من ثنيات النهر الخفيّة...» (ص ١٨).

(١٢) للعلاقة بين الترقيش والكتابة، انظر: **الغائب**، لكيليطو، ص ٦٩، ٧٠، إذْ إن هناك تفصيلاً ممتعاً لهذه العلاقة.

(١٣) **تاريخ الأمم والملوك**، الطبري جـ١، ص ٧٢.

(١٤) تشير كتب التفسير إلى أقوال ممتعة حول «طوبى» لا يتّسع المقام لذكرها.

(١٥) **حياة الحيوان الكبرى**، جـ١، ص ٢٥٣، إذْ ثمّة رواية تشير إلى تدمير الحيّة عن طريق شجرة طوبى وأوراق الزيتون.

(١٦) تشير رواية في تفسير ابن كثير إلى أن طوبى هي شجرة الخلد. جـ٢، ص ٤٩٦، كما أنّ هناك إشارة إلى خاصيّة التمدّد فيها.